الجزء الأول

زوجتا سفيرين
وجسران للتعارف

الرسالة الأولى

آلاف الأكواب من الشاي

أصدقائي وأهلي الأعزاء،

في يوم من الأيام قال لي صديقي الشاعر المؤرخ القيصري محسن إلياس صوباشي: أنت تذكّريني بالسيدة مونتاجيو من عدة نواح، وأعتقد أنك إذا كتبت كل الأشياء التي رأيتِها هنا طوال الثلاثين عامًا الماضية فسيكون ذلك ذا أهمية كبيرة عند الأتراك بل عند سائر العالم أيضًا؛ فجميعهم سيكون شغوفًا أن يرى تركيا بعيون أجنبيّ تردَّد إليها كثيرًا.

في البداية اعتقدت أنه اقتراح مستحيل؛ لأنني لم أكن أتخيل أنّ تجاربي في تركيا قد تهم أي شخص غيري، غير أنني كلما فكرت فيما قال اقتنعت أنه ربما يكون على حق، وأنني أحتاج لأن أكتب بعض تجاربي التي مررت بها أثناء سفري؛ ومن خلال ذلك ربما أستطيع أن أفسر سبب استمراري في الذهاب إلى هناك طوال كل تلك السنوات...

وهكذا قررت أن أبدأ مراسلة خيالية مع السيدة ماري العظيمة نفسها، وأكتب انطباعاتي وتأملاتي الشخصية في رسائل موجهة إليها كما لو أنني أحدِّث معلوماتها عن البلد الذي وقعت في غرامه.

ورغم أنّ الرسائل التالية موجهة إليها فهي موجهة إليكم أيضًا -أصدقائي وأهلي- ولأي شخص آخر قد يهتم بقراءتها، وللشعب التركي أيضًا.

إنني لا أكتب دليلًا للسائحين المتجهين إلى تركيا؛ لذا فهذه الرسائل ستكون مختلفة تمامًا عن معظم الكتابات الأخرى التي كتبها زوّار تركيا عبر

القرون الأربعة الماضية، وخاصة تلك التي كتبت في العقدين الأخيرين.

هذه الرسائل لن تكون سجلًا يوميًّا للرحلة؛ لأن الرَّحالة غالبًا ما يغامرون بالذهاب إلى أماكن غير مألوفة، ولكن الأماكن في تركيا مألوفة لي بطريقة ما، وأيضًا فأنا لا أريد أن يُصاب القارئ بالملل بسرد قصص الرحلات التي تتناول أشياء سخيفة تافهة تتعلق بالسفر مثل غثيان معدتي، أو الطائرات والحافلات التي فاتتني، أو ما فقدته من مال أو متاع؛ لن تجدوا هنا قصص المستكشف الشغوف التي تجدونها في كتابات ريتشارد بيرتون، وألكساندرا دافيد نيل، وفريد برنابي.

ولا أودّ أيضًا أن أكتب دليلًا يصف المشاهد الخلابة التي يسهل العثور عليها في كتب رحلات كثيرة مطبوعة حاليًا أو موجودة على الإنترنت، لن تكون تلك الرسائل بمنزلة كتاب تمهيدي عن تركيا يقدّم حقائق وتفصيلات تاريخية يسهل العثور عليها في أي دليل جادّ؛ إن قرائي لا يحتاجون إلى معرفة كل ما فعله أتاتورك، ولا إلى قصص الحريم، ولا تقاليد الحمامات، ولا ما فعله الحيثيون في مستوطنة تشاتالهويوك.

ولن تكون هذه الرسائل أيضًا دراسة مجتمعية عن الأنماط الحياتية التركية؛ فتركيا تتغير على نحو مطرد، فالإحاطة بها أمرٌ مستحيل، ولن تكون الرسائل تحليلًا سياسيًّا أيضًا.

نعم، أنا لا أستطيع أن أغض النظر عن السلبيات أو أن أخفي المشكلات، لكن لا يمكنني أن أدعي -وأنا أجنبية- أنني أستطيع إزالة الغموض عن هذه البلاد المليئة بالتباينات والمتناقضات، سوف أترك هذه المهمة لعلماء الاجتماع والسياسيين.

ولا أود ألبتة أن تغدو هذه الرسائل مذكرات لي أو سيرة ذاتية؛ فحياتي ليست جذابّة لهذا الحد، وقصص رحلاتي لا تحمل الكثير من المغامرات المثيرة؛ ولذلك لا ينبغي لي أن أطلق العنان لنفسي فيصيبكم الممل.

وأهـمّ مـن ذلك أني لا أريد أن أتهكّم أو أسـخر من الأتراك؛ فلطالما كانـت وجهـة النظـر الغربية ضدهم وبشـكل غير لائق أحيانًـا؛ وقد تبادل كتاب مشـهورون مثل لامارتين، ونرفال، وجيد، ولوتي، وجوتيه، وتوين، وسـتارك، وبارنبي، وغيرهم الأدوار في وصف عـادات الأتراك؛ ما آخذه على هؤلاء الكتاب الرحالة بشـكل رئيس -لا سـيما رحالة القرن التاسـع عشـر العظماء الذين عبروا "الشـرق الساحر"، وسردوا قصصهم البطولية المبالـغ فيهـا حـول الصعوبات التي تغلبـوا عليها- هو أنهم يبـدون لئامًا مستكبرين؛ يزدرون الموضوع الذي يتناولونه بشكل صريح.

لا أرغـب في سـرد قصص مطولـة ومملة تفضي بالقـارئ إلى طريق ملتويـة كي أصل إلى السـخرية من مدى غرابة العـادات والتقاليد في هذا البلـد، ولا أرغـب أيضًـا في المسـاس بالكبريـاء التركي مـن خلال قص حكايـات اسـتهزائية أو فكاهية، أريـد فقط أن تشـاركوني بعض القصص التي حدثت معي، وماذا تعني بالنسـبة لي، فلسـوف تتضمن هذه الرسـائل تجارب شخصية حِرتُ في تفسير بعضها.

تعلمـت من سـنوات سـفري ومن حياتـي المهنية بكاملهـا في مجال العلاقات بين الثقافات المختلفة الكثير والكثير، لكن أكبر درس تعلمته هو أنه ينبغي على المرء أن يخطو بحرص شـديد عندما يتكلم عن بلد أجنبي وشعب أجنبي، وتعلمت أن وجهة نظرك حول العالم غالبًا ما تكون متأثرة بالتصورات التي تحملها داخلك، والتي ورثتها من بلدك الأمّ ومن نشأتك.

عندمـا تكـون بصـدد موقف غيـر قابل للتفسـير ينبغي أن تأخذ نفسًـا عميقًـا، وترجـع إلـى الوراء، ثم تنـزع نظارتـك الغربية المهيمنـة، عندها ستتمكن من البدء في تحديد ما هو لهم، وما هو لك، وما هي الحقيقة.

لا شـك أنـك عندمـا تفتح عينيك لتـدرك قيمة شـعوب أخرى وبلاد أخرى ومجتمعات أخرى تختلف عن بلدك وشعبك ومجتمعك فإن ذلك

أمـر لا يقـدر بثمن، ولا يوجد بلد آخـر في العالم يجعل هذه التجربة أرق وأكثر نبضًا بالحياة من تركيا.

أنـا أطـوِّف في تركيـا وأتعامل مـع شـعبها منذ وقت طويـل، وقد نما فيّ حبّ هذا البلد وثقافته بقدر حبي لوطني وثقافتي أو بقدر حبي لفرنسا وطني الآخر بالتبني.

أعـرف أنكم جميعـا لا تفهمون كيف أكنّ تلك المشـاعر القوية تجاه البلـد الذي ظهر بصورة سـيئة في فيلم ''محاولة الهـروب'' وتجاه هؤلاء ''الأتـراك البغيضيـن''، مـا أريـده منكم هـو أن تعطوا تركيـا فرصة، فهذه الرسـائل هي محاولة مني بأسـلوبي البسيط لترسـيخ تفاهم أكبر بين تركيا وسائر العالم؛ وعليه فآمل أن يكون في هذا العمل ردٌّ على أسئلتكم إذا ما سألتموني جميعًا: لماذا أسافر إلى تركيا عامًا بعد عام، وأذهب مرة أخرى للأماكن المُغْبرّة نفسِـها بدلًا من استكشاف أركان العالم الأربعة كما فعل فيلياس فوج[1]؟

غيـر أننـي كما قلت من قبل لا أوجه هذه الرسـائل لأهلي وأصدقائي والقـراء الآخريـن فحسـب بـل هـي للشـعب التركـيّ أيضًـا، وأتمنى أن تمثل رسـائلي رسـالة شـكر طويلة وبسيطة لتركيا وشـعبها، وتعبيرًا بسيطًا عن تقديري وحبي لهذا البلد ومواطنيه.

هذه الرسـائل هي طريقتي لردّ الجميل، وردًّا على آلاف الأكواب من الشـاي التي قُدمت إليّ خلال السنوات الثلاثين الماضية، فيا لَها من كمية كبيرة من الشاي، حقًّا حقًّا، وأقول لهم: نعم، أريد كوبًا آخر من الشاي.

مـع تقديري
كاثرين

(١) بطل فيلم «حول العالم في ٨٠ يومًا» (المترجم).

الرسالة الثانية

قلم توازن وإدراك

عزيزتي السيدة ماري،

آمل ألا تنظري إلى هذه الرسالة على أنها تطفل مني، وأن تغفري لي تبجحي في الإقدام على الكتابة إليك؛ فقد شجعتني رغبتي في التعبير عن إعجابي بأسلوبك في الكتابة على مخاطبتك بشكل مباشر، وأودّ أيضًا التعبير عن الصلة التي شعرت أنها تربطنا بعد قراءتي للرسائل التي كتبتِها إلى وطنك أثناء فترة إقامتك في تركيا من عام ١٧١٦م حتى عام ١٧١٨م.

أرجو أن تسمحي لي بأن أقدم لك نفسي: اسمي كاثرين برانج، امرأة أمريكية وأمينة مكتبة، أشترك معك في عدة أشياء فمثلاً: كلٌّ منا تركت وطنها في سن صغيرة لتعيش في بلد أجنبي، كما أن كلتينا اختارت أن تغترب عن وطنها عدة سنوات من حياتها ، أنا متزوجة أيضًا، وكلتانا تؤمن بأهمية التعليم، والأهمّ من هذا كلّه أننا نتشارك تركيا، فقد قضيت وقتًا طويلاً في السفر داخل تركيا خلال العقود الثلاثة الماضية.

أنـا كاتبة رسـائل مثلك، أسـعد أيما سـعادة بكتابتهـا، وأحبّ أن أرى الصفحـة وهـي تمتلئ بالسـطور مثلما يمتلـئ حوض الاسـتحمام بالمياه الدافئـة، وأن أشـعر بالتوتـر قليـلًا بينما يتحـرك رأس القلم علـى الورقة، وأن أختـار أدواتـي فـي كتابة الرسـائل بعناية: أفخر أنواع الـورق الكثيف أو البطاقات الملونة، وقلم رشـيق التصميم جيد الصنـع يتوازن بشـكل تام فـي يدي، وطوابـع بريد مختارة بدقة مليئة بالألوان والإشـارات التاريخية أو القضايا التي أفضلها.

كتابة الرسـائل تحمـل قدرًا كبيرًا مـن الأمل والإثارة، حتى إنني أشـعر وأنـا أكتب أننـي أعمل بنفس الحب الذي أعمل بـه وأنا أطهو وجبة متميزة لأحبائي، وأتخيل سلسـلة الأشـخاص الذين سـتمرّ بهم الرسـالة وهي في الطريق، والسعادة على وجه صديقي عندما يرى الرسالة في صندوق بريده، وفضوله وهو يحل شفرة الطوابـع، وحماسه وهو يلتقط مفتاح الرسائل ويفض الظرف، ثم فرحته عند قراءته لما أودّ أن أقوله له، ولكن فوق ذلك كلّه أعتقد أن أكثر ما أتلذذ به هو الحميمية التي تقدّمها كتابة الرسـائل بين شـخصين، وحالة الشخص وهو يتقدم أو يتأخر كما يحبّ عند تعبيره عن عاطفة ما لديه؛ وأقدّر كيف يستطيـع المرء أن يخفي الأفكار السرية خلف الكلمات، وكيف يستطيـع أيضًا أن يخطو للأمام مـع تلك الأفكار نحو دائرة الضوء.

لا شيء يمكن أن يحلّ محلّ الحميمية التي تسمح بها سطور الرسالة، وأنت يا سـيدة ماري قد حظيت بذاك القدْر دون شـك... بين القسـطنطينية وإنجلترا، وبين حياتك الجديدة الغامضة وحياتك المألوفة التي تركتها وراءك.

وعلـى الجانـب الآخر، تقـدّم كتابة الرسـائل قـدرًا كبيرًا مـن الحرية والصراحـة والطاقـة؛ فكتابة رسـالة ذات لهجـة لاذعة تمكننـي من تبديد الحزن الذي يصيبني في كثير من الأحيان.

لقد كتبتِ خمسًا وعشرين رسالة من تركيا خلال السنة التي قضيتِها هناك، وهو عدد غير قليل؛ بالنظر لأنك كنت مشغولة بأمور منزلك الجديد، وبطفلك الصغير الذي يبلغ من العمر أربع سنوات، وبالاستعداد لولادة طفلك الثاني، ومنذ أن كتبتِ هذا العدد من الرسائل نجحت في أسر خيال عدد لا يحصى من القراء والفنانين، وخاصة خيالي أنا باعتباري رحالة كاتبة.

وبمرور الوقت اكتسبت مكانة مرموقة بصفتك واحدةً من أبرز كتاب الرسائل باللغة الإنجليزية؛ فقد وصل إلينا نحو تسعمائة رسالة مطبوعة من رسائلك منذ أن كتبتِها، أما تلك الرسائل التي كتبتِها في تركيا ونشرت بعد وفاتك فلا تزال تُقرأ إلى اليوم، وتمثل منجمًا للاقتباس بالنسبة لكثير من كتاب الرحلات، كما تقدم الكثير والكثير من المادة الأولية للبحوث الأكاديمية عند دعاة الحداثة والمستشرقين ودعاة المساواة بين الجنسين.

لدي صديق تركي، وهو كاتب أيضًا، يقول: إنني أذكّره بك، ويا له من إطراء! لا أعتقد أنه يعني أنني أمتلك نفس مواهبك وذكائك، بل أعتقد أنه يقصد أنني أحاول أن يكون لدي نفس النظرة المتفتحة المحايدة تجاه ما حولي كما فعلتِ أنت، وهذا ما يجعل أسلوبك في كتابة الرسائل على هذا القدر من التميز في رأيي؛ فهذا التميز لا يرجع إلى ما تَعرضين من نظرات ثاقبة في التاريخ والحياة اليومية خلال تلك الحقبة، بل إلى إدخالك عنصري السهولة والاتزان في موقف شخص غريب يعيش ثقافة مختلفة.

أنا معجبة بكيفية نقلك للأحداث والحقائق بشكل صريح وصادق، لا بشكل سلبي أو نقدي؛ فقد كنت سائحة لديها القدرة على الاعتراف بالجميل والتقدير، وتصرفت دائمًا كما لو كنت ضيفة في بيت أحدهم؛ فلم تكن نبرتك أبدًا نبرة الموبخ القاسي الذي يحتقر الأتراك وكأنّه يمتاز عنهم أخلاقيًا، وأعطيت لنفسك حرية الشك في التركيبة المجتمعية الخاصة

بمجتمعك أنت، لا في تركيبة المجتمع التركي، ولم تصدري أبدًا أحكامًا متحيزة ضدهم، وفهمتِ المعنى الحقيقي للتبادل الثقافي، وخاصة في مناقشاتك مع معلمك "السيد أحمد"، وبحثت عن التناقضات بين أوروبا الغربية وتركيا، وكذا التناقضات داخل أوروبا وداخل تركيا.

أنا أستمتع بتخيل شخصية المرأة التي أراها وراء تلك الكلمات؛ لقد سعيتِ بفضول وشغف تتعلمين كل ما تستطيعين تعلُّمه عن الحياة اليومية بدءًا من الدين إلى المواقد والأطعمة، وغمست نفسك في عالمك الجديد، ولم تعطي الفرصة لأي شيء ليعيقك عن استكشافه.

أشعر أنك امرأة ذكية ذات روح مبتهجة، يكون تألق ذكائها وسحرها في قمته دائمًا عند نهايات رسائلها المتفائلة، وتقدّم رسائلك إشارات بأنك تستطيعين أن تكوني ذات إرادة قوية وقلب طيب أيضًا تبعًا للموقف.

ما أروع الرسائل التي كتبتها لوطنك من تركيا يا سيدة ماري! وما يدهشني دائمًا أن الكثير والكثير من المسافرين إلى تركيا عبر القرون المختلفة تقابلهم نفس القضايا ويتعرّضون لحوادث سوء التفاهم والإحباطات نفسها؛ يبدو أن الجميع يفاجأ بنفس الأشياء سواء كانوا من العسكريين المغامرين في القرن التاسع عشر، أو من دعاة الحداثة في أواخر القرن العشرين؛ بعض الأشياء لا تتغير أبدًا، وبعض الصراعات لا تجد حلًّا أبدًا؛ فالكثير من الأسئلة لا تزال دون إجابة.

عندما أنظر إلى تجاربي وأرى مدى محاكاتها لتجاربكِ، أشعر بأن هناك ارتباطًا بيني وبينك؛ كنتِ عازمة على تحقيق أفضل ما يمكن تحقيقه في كلّ موقف، والاستمتاع بالحياة، والحصول على كل ما تستطيعين من كل ما يصادفك.

أحـاول أن أتخيـل كيف كان رد فعلك تجاه الحـوادث اليومية، وكيف تعاملتِ مـع سـوء التفاهم والارتباك المتكررين مرارًا بينما كنت تحتفظين بذهـن صـافٍ لا يصـدر أحكامًـا؛ حقًّا إنّ ذلـك كان منك بيسـر ونبل دون تكلف أو شكوى على الإطلاق، ولطالما أعجبت بهذا فيكِ.

لقـد حاولـت أن أتبنّى نفس أسـلوبك المتفتح فـي عملي ورحلاتي، ولكن بصفتي غريبة أيضًا يستحيل عليّ أن أرى أي شيء بوضوح؛ فالغريبة ترغب أن تكون كالمواطنة، ويغلب عليها احتمال التحيز والإمبريالية.

وفـي النهايـة، أحاول عندما أسـافر أن أطبق نفس الاسـتراتيجية التي ترشـدني فـي مهنتي بصفتـي أمينة مكتبة: أجمـع المعلومـات، ثم أنظمها، ثم أنشـرها، ولا أحاول تفسـيرها أو تعديلها، بل أنشـرها فقط، أو هذا ما أحاوله، كما قلت أنتِ في رسـالتك من راتيسـبون: ''من الحكمة أن يبقى المرء محايدًا'' أو كما قلت من فيينا: '' الكياسـة والنشـأة الجيدة تختلفان فـي الأجـواء المختلفة، تمامًا مثلما تختلـف الأخلاق والدين؛ ولن نعرف مَن على الصواب حتى يوم الحساب''.

أنا متأكدة أنك تومئين برأسـك وتبتسمين بسبب كثير من تعليقاتي التي شـعرتِ بها قبلي منذ (٢٩٠) سـنة، ولكن ليحيَ هذا التواصل، وهذا البحث الأبدي المسـتمر عـن التفاهم، وهذه المقارنة، وهـذا التحدي؛ ففي ثقافات العالم الكثير لتشاركه وتكتسبه بعضها من بعض، وفي النهاية ربما نستطيـع أن نتعلم كيف نشارك بشكل أمثل في حركة الإنسانية الحرّة نحو مجتمـع يسوده التفاهم والاحترام والسلام، قد يبدأ كل ذلك بكتابة رسالة، أليس كذلك؟

إذًا هـل تسـمحين لـي بمكاتبتك؟ سـوف أسـعد كثيرًا بأن أشـاركك انطباعاتـي الخاصـة عـن بلـد كلتانا تعشـقه؛ أتمنـى أن تسـتمتعي بمعرفة التفاصيل عن تركيا في أواخر القرن العشـرين، وسـوف تطمئنين أن الكثير

والكثير من القيم والمعالم التي أعجبت بها كثيرًا سائدة في هذا البلد ولا تزال كما هي، ولسوف تسعدين أيضًا برؤية تطور ونمو هذا البلد وشعبه، أشخاص مثلك ربما أسهموا في تدعيم هذا النمو من خلال توضيحهم للأتراك بأن الغرب والغربيين يمتلكون من الكرم والطيبة ما يمتلكون.

مع تحيات صديقتكم
كاثرين براننج

الرسالة الثالثة

في العالم مكان يسمى سيواس

عزيزتي السيدة ماري،

آه يـا سـيدتي! لم تكوني فـي يوم من الأيام مضطـرة للتعامل مـع أي سؤال بالـغ الصعوبة في رسائلك، ولا عليك سوى أن تشاركي بانطباعاتك عن هذا البلد الذي كنت تزورينه، وما أروع ما قدمت في هذا الشأن برأيي! ولكـن لـم يكن عليك أبدًا تبرير وجودك هناك، صدقيني غالبًا معالجة هذا الموضـوع ليس أمرًا سـهلًا؛ فقد أوفدْت إلى تركيـا، لمرافقة زوجك؛ فلم يكن لك خيار في هذه المسألة.

أعتقـد أنك كنت تسـتطيعين البقاء في بلدك حـول المدفأة في منزلك الكبير بالريف الإنجليزي، غير أن ذلك لم يكن ليمثل خيارًا بالنسبة لامرأة تمتلك هذا القدر الكبير من الفضول مثلك، لكن الأمر كان مختلفًا عندي؛ فقد ذهبت إلى تركيا استجابة لهوس لديّ.

أمَّـا السـؤال الـذي يُطرح علـيّ دائمًا ''لمـاذا تركيا؟'' فغالبًا ما أشـعر بالإحراج الشـديد ولا أفصح عن السبب الحقيقي لذهابي إلى هناك لأول

مـرة، فأحيانًـا يكون الأسـهل علـيّ أن أتلعثم ثـم أقول: إن لـديّ أصدقاء أتـراكا، أو بشـكل أدق: إنّ لـدي حبيبا تركيًّا -ويبدو أن هـذه هي الإجابة التي يودّ كل الناس سـماعها- أو إنني أسـتمتع بدراسة اللغات النادرة، أو إننـي مـن هواة جمـع السـجاد، أو إن لدي عملًا في تركيا، ولكن السـبب الحقيقي وراء ذهابي إلى تركيا لأول مرة هو رغبتي الجارفة في رؤية مبنى، نعم مبنى، ولكن ليس أي مبنى؛ إنه مبنى من القرن الثالث عشر، أقدم من أي شـيء قد يتصور أمريكيٌّ وجوده أو رؤيته في بلدنا، فعندما رأيت هذا المبنى لأول مرة معروضًا خلال محاضرة بالجامعة لمادة تمهيدية لدراسة تاريـخ الفن الإسـلامي زُرعت بذرة في رأسـي ظلت تكبـر تدريجيًّا حتى استحوذت على حديقة خيالي بكاملها.

كنت في التاسعة عشرة من عمري فتاة من وسط الغرب الأمريكي من ولاية أوهايو، سـافرت بعيدًا جدًا عن وطني للدراسـة في إحدى جامعات فرنسا، كان اليوم الذي حدثت فيه هذه المصادفة في فصل الشتاء بباريس، وكالمعتاد في شتاء باريس كان الجوّ رماديًا وممطرًا وقارسًا وكنت جالسة في المدرج الضخم المظلم في يوم من أيام شهوري الأولى هناك، وكنت أشعر بالوحدة قليلاً.

شـعرت بالوحدة لأننـي لم أكن قد كونت صداقـات بعد، وبالإحباط لأن لغتـي الفرنسـية لـم تكن جيدة بما يكفي لكي أفهم كل شـيء بشـكل تـامّ، وباليـأس لأنني وجدت نسـق المحاضرات الفرنسـية غير ودي على الإطلاق؛ فقد بدت تلك القاعات الضخمة رسـمية تمامًا مقارنة بالفصول الصغيرة المفعمة بالمشاركة التي تعودت عليها في نظام التعليم الأمريكي.

كنت أفتقد الشـدَّ والجذب بين الطالب والمدرس، والهياج والكياسة اللذيـن يميزان الفصل الدراسـي في الولايات المتحـدة، حتى إنني بدأت

أشكّ في مدى ملائمة المسار الدراسي الذي اخترته؛ وذلك لأن كل شيء كنت قد قابلته حتى تلك اللحظة بدا منفصلاً للغاية عن أية حقيقة تربط بين الفنّ والحياة، ولا يتناسب مع اهتماماتي بشكل كبير، كنت قد قضيت شهورًا في محاضرات مادة تاريخ الفنّ في دراسة الحفريات الفرنسية الشهيرة في بلاد ما بين النهرين القديمة، مع ساعات طويلة من المحاضرات المليئة بصور لا تنتهي للفائف التعاويذ والتماثيل الخرقاء التي ترجع إلى حضارات ميتة، كل ذلك بدا غير مثير للانتباه وعديم الفائدة ومملاً.

لكن في هذا اليوم الشتوي الرمادي، في منتصف المادة التمهيدية لتاريخ الفن الإسلامي، ''أطلّ الملك من مركبه''، كما يُقال في الروايات الإغريقية؛ فقد ظهرت على الشاشة فجأة بلا سابق إنذار صورة هزتني وأسقطت عني كل تشاؤمي وكآبتي، كانت صورة لمبنى بدا وكأنه قد بُني بحجارة من الذهب، وفجأة ظهر ما يبدو أنَّه كالسِّحر... إنها شمس الأصيل، ومن ورائها ضوء أصفر يتدفق من الشاشة ليضيء تلك القاعة الكئيبة، فشعرت فورًا أنني أقف في أرض فضاء في يوم من أيام الربيع تحت سماء تشبه زرقتها زرقة أحجار القرميد الخزفية التي رأيتها تزين جدران المبنى، كانت على هذه الأحجار الذهبية نقوش عميقة لحيوانات راقصة، ونجوم، ونباتات، وأشجار، وكتابة بحروف متصلة، وطيور يغلفها جميعًا شريط من زخرفة (الأرابيسك) التوريق العربية، يشبه جمالها وتعبيرها السحري تماثيل الأديرة الفرنسيّة الرومانسية التي أعشقها.

قال الأستاذ: ''...والآن ها نحن نرى مدرسة جوك الدينية في سيواس'' لم أكن قد سمعت من قبل كلمات ''مدرسة (*medrese*) وجوك (*Gök*) وسيواس (*Sivas*)'' ولم يكن لدي أدنى فكرة أين يقع هذا المبنى

بالطبـع -ولكـن عندما كنـت أكتب هـذه الكلمات في دفتـري بأفضل ما أمكنني- وأسـرعت في تسـجيل هذه الكلمات على دفتري وأحسست أن تلك الكلمات هي مفردات للغة جديدة سأتعلّمها.

ما الذي أَسَرَ خيالي في هذا المبنى على هذا النحو؟ سأخبرك عن هذا في رسـالة لاحقة، ولكن الكثير من رسـالاتك أنت تمتلئ بأوصاف لمبان رأيتهـا؛ ولذلـك فإني واثقة من أنك تسـتطيعين إدراك ما أعنيه بشـكلٍ ما، يكفـي أن أقـول لـك: إنّ الأمر كان يشـبه أول مرة تحدّقيـن فيها في عيني رجل سوف تتزوجينه؛ عرفت تمامًا أنّ الأمر حقيقي.

نعـم، الحجـارة لديها القـدرة على ترجمة الدفء والحيـاة، والمعمار يستطيـع تجسيد المشاعر الأكثر عمقًا ويجعلها حقيقية وملموسة، نعم لقد تأكدت من هذا في تلك اللحظة.

سـارعت إلـى المكتبة بعد المحاضـرة للبحث عن كتاب يسـتطيـع أن يوضـح لـي تلك الكلمات ويفسـر معناهـا، عثرت على كتـاب فيه خريطة توضح موقع هذا المكان الذي يسمى سيواس:

"سبسـطية": مدينة في وسـط تركيا تمامًا، وأصبحت تلك النقطة على الخريطة بمنزلة رأس مؤشـر البوصلة عندي، مثل علامة على خريطة الكنز تحـدد المـكان الذي دفنت فيـه جرة الذهب؛ عرفت أننـي يجب أن أذهب لرؤية البلد الذي تمكن من إنتاج مبنى كهذا بشكل مباشر.

استمرت الصورة تلازمني وتستحوذ على فكري مثل النبات المتطفل على سـاق شـجرة، وتظهـر بشـكل مفاجئ ليل نهـار، وبعد فتـرة قصيرة أدركـت أننـي بحاجة لأحد أمريـن: إما أن أزيل العشـب الضار عن تلك الحديقـة، وإمَّا أن أمدّها بالسـماد، فقررت أن أسـافر إلـى تركيا، وأذهب إلى هذا المكان الذي يسمى سيواس لأعثر على هذا المبنى؛ فأنا أستطيـع

-كما ترين- أن أجده، فهو ليس كنزًا مدفونًا، إنه هناك! الكل يستطيع رؤيته! أردت أن أقف أمامه، وأن ألمس تلك الأحجار الدافئة، وكنت مقتنعة بأنها سوف تكلمني، ومتأكدة أن لديها القدرة على الاستمرار في تحويل أيامي المظلمة إلى أخرى مشمسة.

وعندما كنت في تركيا أقف أمام هذا المبنى عرفت أنني قد عثرت على جرة الذهب في شوارع سيواس، لم يكن الأمر بحثًا عقيمًا لا فائدة منه؛ فقد عثرت على غنيمة أكبر من المبنى ذاته؛ عثرت على مثال جيد لانعكاس التطلعات الفنية إلى داخل الحياة اليومية: هذا معمار يتكلّم وتلك الحجارة تتحدث.

ومنذ ذلك الحين عاهدت نفسي أن أصبح صديقة لهذا البلد الذي يسمى تركيا، أردت أن أعثر على مبانٍ أخرى مثل هذا المبنى، أردت أن أستكشف كيف شُيِّدَ هذا المبنى، وعلى أيدي مَن من البشر؟

وكلما زادت معرفتي بتركيا أكثر فأكثر من خلال الرحلات السنوية، والبحث، والاستكشاف، وعدد هائل من الحجارة طوال الثلاثين سنة التالية، لم يساورني الشك لحظة واحدة أنني سأبقى مرتبطة إلى الأبد بذلك البلد العظيم الذي يمتلئ بأشخاص لديهم قلوب دافئة تمامًا مثل تلك الحجارة.

صديقتكم

كاثرين برانج

سيواس

دليل السائح وظرف الفندق، سيواس عام ١٩٧٨م

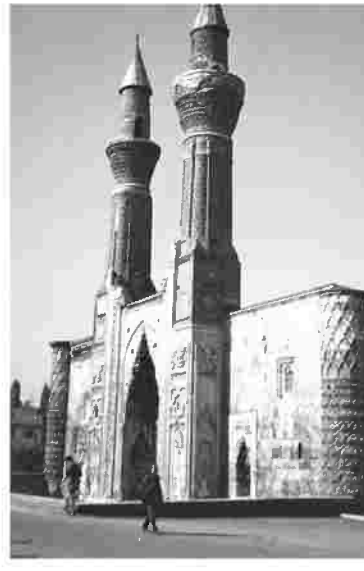

مدرسة جوك في سيواس عام ١٢٧١م

الرسالة الرابعة

بناء جسر

عزيزتي السيدة ماري،

لقد ذكرت في الرسالة التي كتبتها لـ ''القس كونتي'' التي تصفين فيها المرحلة الأخيرة من رحلتك البرية عبر أوروبا إلى القسطنطينية أنك قضيت ليلتك في مدينتي سيليفري وبويوك شكمجي، تشتهر هاتان المدينتان بالجسور العثمانية الشهيرة التي أثارت إعجابك مثلما تثير إعجاب الزائرين اليوم:

> ''مررنا في بقية رحلتنا عبر مروج مصبوغة بالألوان الجميلة على شاطئ بحر مرمرة ''بروبونتس قديمًا''، وقضينا ليلتنا التالية في سيليفري -كانت قديمًا بلدة راقية-، وهي الآن مرفأ بحري جيد جدًّا، مبنية بشكل منسق ومنظم، وفيها جسر يحتوي على اثنتين وثلاثين قنطرة... ثم قضينا الليلة التالية في بلدة تسمى ''بويوك شكمجي'' أو ''الجسر الكبير''، والليلة التي تليها في ''كوتشوك شكمجي''، أو ''الجسر الصغير'' في نُزُل مريح جدًّا، كان في السابق تكيَّة للدراويش، وكان أمامها ساحة واسعة تحيط بها حجرات رخامية تتوسطها نافورة رائعة، إنّ المشهد من هذا المكان والحدائق المحيطة به من أروع ما شاهدت، وهو دليل على أن رجال الدين في كل الأديان يعرفون كيف يختارون أماكن خلوتهم''.

قام السلطان سليمان القانوني قبل وفاته بفترة وجيزة عام ١٥٦٦م بتكليف سنان معماري السراي بتشييد جسر ''بيوك جكمجه'' الذي يمر فوق بحر مرمرة بقناطره المميزة المحدّدة الرأس، وتشييد جسر ''سِلِيوْري''.

لا شك أنّ قوات السلطان أحمد الثالث التي شاهدتِها في أدريانوبل (*Adrianople*) ''أدرنة'' قد عبرت هذين الجسرين قبلُ في رحلتها إلى ساحة القتال في النمسا، وهي في طريقها للاشتراك في الحرب ذاتها التي حاول زوجكِ أن يفاوض لعقد هدنة لها، لم تخفت حدة حلم الأتراك الدائم في مدّ نفوذهم في أوروبا منذ الأيام المجيدة الأولى لبناء هذين الجسرين المقنطرين.

يحدوني الفضول لمعرفة انطباعاتك عن هذين الجسرين؛ لأن الجسور التركية قد لعبت دورًا في حياتي؛ ففي نفس الوقت الذي عثرت فيه على هذه الأحجار المتحدثة في مدرج الجامعة حدث موقف آخر يستحيل أن يكون بمحض الصدفة، كان بمنزلة سهم آخر يشير في خريطة حياتي إلى الطريق المؤدي إلى تركيا.

حينما انتقلت للحياة في باريس وأنا طالبة شابة، كان من الضروري أن أجد عملًا لأدفع نفقات معيشتي، وقد أسعدني الحظ بالعثور على وظيفة في شركة تقدم خدمات الترجمة لشركات الهندسة المدنية الفرنسية الكبرى؛ وهكذا عملت مع فرق من المهندسين الذين يحاولون فك شفرة وثائق فرنسية صعبة وترجمتها إلى الإنجليزية، مثل وثائق الرموز الصناعية، وطلبات العطاءات، ومعايير البناء، والمناقصات، ووثائق التشييد، وما شابه، كان عملًا رتيبًا جدًّا لكنني أحببت فيه الدقة والإتقان والوضوح؛ لهذا أشعر كثيرًا أن هذه التجربة قادتني للعمل أمينة مكتبة، عندما بدأت العمل في هذه الشركة كنت فتاة صغيرة بريئة مبتدئة،

فكنت خائفة بعض الشيء؛ لهذا كان أول مشروع ترجمة يُسند إليّ يعتبر خطوة مهمة لأثبت نفسي وقدراتي، وحينما علمت أنني سأعمل على ترجمة مناقصة لتشييد جسر شعرت فجأة بالألفة تجاه المشروع والرغبة الشديدة في تشييد جسور بين فرنسا والدول النامية.

غير أن هذا الجسر لم يكن كأي جسر، فمن المقرر أن يعبر واحدًا من أشهر المجاري المائية في العالم "مضيق البوسفور" في إسطنبول بتركيا؛ إنه جسر جديد سيبنى شمال الجسر الأول الذي بُني عام ١٩٧٣م.

بالطبع كنت أعرف جغرافيا المكان جيدًا، لكنني في تلك الليلة أحضرت الخريطة ونظرت عن كثب إلى موضع التشييد المحدد، وكانت الصدفة أن موقعه في نفس الأرض ذات الأحجار المتحدثة التي شاهدتها في الصفّ، ولم أنس ذلك مطلقًا.

على مدار الأشهر التالية بذلنا جهدًا كبيرًا في ترجمة وثائق هذا العطاء، التي كانت تمثل الأوراق التجارية التي ستقدمها إحدى أكبر شركات التشييد الفرنسية لهذا المشروع الدولي الضخم.

لقد هالتني ملايين الدولارات المرصودة لهذا المشروع، علاوة على حجم البناء، وكمية المعادن، وحمولات المحمل، والحسابات المتخصصة، كل هذه الأمور أربكتني، ومع أنني نشأت في بلد كبير معتاد على تشييد مبانٍ ضخمة، فإنني لم أتعامل سابقًا مباشرة مع مشروع بهذا الحجم الهائل.

بعد ساعات من ترجمة معامِلات الإجهاد ومعادلات تحميل الحِمل كنت أعود إلى منزلي ليلًا وأحضر كتابًا لدراسة صور مضيق البوسفور، وكنت أحاول الإجابة عن بعض الأسئلة التي تطرأ في ذهني حول دوري في هذا المشروع، أسئلة مثل: ماذا سيكون دور "جسري"؟ كيف سيغير

حياة الناس المقيمين على جانبيه؟ هل سأضر بهؤلاء الأشخاص كما تسحق الأبراج الضخمة أشجار الأرجوان على ضفاف البوسفور؟ هل هذا الجسر يحترم التاريخ والبيئة الطبيعية هناك؟ ما مقصد قادة البلد من إتمام هذا المشروع؟ ظللت أنظر إلى صور قديمة وحديثة، وإلى مجموعة رسوم شهيرة رسمها ميلينج تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، وحاولت استيعاب تاريخ المنطقة وسياقها.

الفرق شاسع بين الرسوم الحجرية القديمة التي تعكس صورة المياه الهادئة وقوارب التجديف الخشبية المتكاسلة، والعالم الحديث المليء بالسيارات المسرعة المكتظة بالركاب والشاحنات المزعجة الممتلئة بالبضائع.

ومع ذلك، كلما قرأت أكثر عن تركيا وتاريخها وأحلامها بدأت أفهم أن هذا الجسر ليس مجرد قناة لعبور السيارات والأشخاص، بل إنه بمنزلة ممر لنقل الأفكار والقيم؛ إنه يرمز لتقدم هذا البلد، إنه المسمار الذهبي الذي سيربط الطريق الممتد عبر القارات ليصل آسيا بأوروبا.

وهكذا بدأت أربط أهداف هذا الجسر وحجمه بالأرض التي سيُبنى عليها، حينها شعرت فجأة أنني جزء من شيء عظيم إنه ميلاد بلد قوي، وأن مشاركتي الصغيرة سيكون لها أثر في حياة الأشخاص الذين سيعبرون هذا الجسر يوميًّا، في البلد الذي تستقر فيه أبراجه، وفي عالم الأفكار الذي سيسافر عبره من الشرق إلى الغرب والعكس.

شرعت أقرأ بِنَهم عن تاريخ هذا الشعب، وخاصة عن الرجل الذي سيحمل الجسر اسمُه "السلطان محمد الفاتح"، المجاهد الذي فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م؛ وأدركت أن هذا الجسر قُدِّر له أن يواصل مسيرة العظمة والتوسع التي بدأها السلطان، كما أن هذا الجسر سيحقق

طموحات رجال عظماء آخرين، مثل سليمان القانونيّ وأتاتورك فضلاً عن قادة الجمهورية التركية الحديثة.

أدركت أنّ شعب تركيا ما زال يتحلى بعد مرور مائتين وستين عامًا بنفس روح "الفاتح"، ولأنني نتاج بيئة غرب أمريكا المتوسط؛ تفهمت هذا الطموح وأعجبت به، أردت أن أعرف المزيد عن هؤلاء البُناة المتحمسين، وحلمت بعبور الجسر معهم.

يمكنكِ أن تري يا سيدة ماري، كيف عايشت قصة جسر الفاتح في مرحلة من حياتي؛ شعرت بصلة قرابة مع هذا البلد المتلهف لتحديث نفسه، وهذه عادتي دائمًا، فأنا أدعمهم في هذا.

تعلقت بهؤلاء الأشخاص الذين سيعبرون يومًا ما "جسري"، وتخيلت شعورهم في تلك اللحظة التي يتمكنون فيها من تحريك رأسهم لرؤية الأفق الشرقي والغربي، علاوة على شريط المياه الزرقاء الحريري أسفلهم.

أثناء عملي مع هذه الوثائق بدأت أفكر أيضًا في مشروع بناء حياتي؛ فمشروع الجسر قد أصبح المحك الذي أختبر عليه الأسئلة التي حيرتني خلال انتقالي من مرحلة الشابة المتلقية إلى الراشدة المنتجة: هل أريد أن أصبح صانعة جسور لربط الثقافات؟ هل أريد أن أساعد الناس على العبور من مكان إلى آخر؟ هل أريد أن أبني بالفعل أشياء كما فعل والدي الذي امتهن البناء؟ هل أريد أن أكون مترجمة لإبداع الآخرين أم أكون أنا المبدعة؟

أفترض أنك طرحتِ نفس هذه الأسئلة على نفسك يا سيدة ماري عندما شرعت في مهنتك بوصفك كاتبة: ما الذي دفعك لالتقاط القلم في البداية؟ ما الذي شجعك وحثك على التقدم بسرعة في مساعيك الأدبية، بالرغم من القيود الاجتماعية التي كبلتك؟ أيًّا كان الدافع الذي شجعك على ذلك فيبدو أنه بالنسبة لي كان الجسر التركي.

للأسف لم تحصل الشركة الفرنسية التي أتحدث عنها على عقد بناء جسر الفاتح، لكنها استمرت -وكذلك فعلتُ- في بناء جسور أخرى، ومستشفيات في إفريقيا، وجامعات في المملكة العربية السعودية، لكن الحقيقة أنني لم أجد أية وثائق بين التي ترجمتها تحمسني وترضيني أو تمس قلبي مثل وثائق جسر البوسفور.

بعد إتمام جميع وثائق العطاء وإرسالها، كنت متأكدة أنني قدمت أكثر من مجرد ترجمة؛ فقد وجدت المحك الذي سأقيس عليه بقية حياتي، نعم، لقد أردت بناء أشياء، فضلًا عن الشعور بالقوة والإنجاز الناجمين عن ذلك.

نعم، لقد أردت مساعدة الناس على العبور من ضفة إلى أخرى على جسر التفاهم، والأهم من ذلك كله أنني علمت أن تركيا ستشكل جزءًا مهمًّا في حياتي القادمة.

تحدث الكثيرون منذ ذلك الحين عن جسر الفاتح وما يرمز له بوضوح من عناصر مختلفة للصراع الثنائي العنيف الذي اعتمل في قلب كل تركي قرونًا بين الشرق والغرب، والقديم والحديث، والدنيوي والديني، والأوروبي والآسيوي، والتراث العثماني والرؤية الأتاتوركية، والبسطاء والعلماء، والفقر والثراء، والمدينة والريف.

ما زالت هذه الرموز تشغل الكتّاب حتى الآن، وما زال الجسر يكرر نفس السؤال الملح: ''في أي جانب تقف؟'' إن الكابلات الحديدية المزدوجة التي تعلّق هذا الجسر قوية ومرنة معًا، مثلها مثل القضايا الجغرافية، واللغوية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية المتعددة التي تدور الآن في جمهورية تركيا، لكن الجسور في النهاية رمز القوة؛ فالشخص الذي يتحكم في الجسر يتمتع بتفوق استراتيجي، هذا هو الموضع الذي

اختارته إسطنبول لنفسها بمساعدة هذا الجسر؛ لتغدو الحلقة المركزية في السلسلة الأوروبية والآسيوية.

وكما ترين يا سيدة ماري؛ لهذا سألتكِ عن انطباعاتك عن هذين الجسرين في مدينتي سيليفري وبويوك شكمجي، فقد كنتِ حينها مثلي ومثل تركيا -وقت بناء هذين الجسرين العثمانيين وجسر الفاتح- على مشارف حياة جديدة؛ لم تعرفي وقتها ماذا يوجد في الجانب الآخر من هذا الجسر ذي الاثنتين والثلاثين قنطرة، أو إلى أين يؤدي الطريق في الجانب الآخر، لكنك عرفت -بمجرد بناء جسر في هذا المكان- أن الجانب الآخر يستحق الوصول إليه، وهذا هو ما يجعل عبور الجسور تجربة مثيرة.

مع تحيات صديقتكم
كاثرين برانج

جسر بويوك شكمجي ذو القناطر التسع عام ١٥٦٧م

جسر سيليفري ذو الاثنتين والثلاثين قنطرة ''وما زالت القناطر كلها واضحة كما كانت في أيام السيدة ماري مونتاجيو'' عام ١٥٦٨م

جسر الفاتح في إسطنبول عام ١٩٨٨م

الرسالة الخامسة

عبور الجسور

عزيزتي السيدة ماري،

وهكذا توجهت صوب بلاد الجسور والأحجار المتحدثة في صيف ١٩٧٨م.

لم أسجل بدقة انطباعاتي عن الزيارة الأولى في دفتر رحلاتي؛ ربما لأنني كنت منبهرة لدرجة تفوق تصوري، فلم أتمكن من توثيق كل شيء.

غير أنني أذكر بوضوح شعوري بالسعادة عند رؤيتي أول مسجد ذي مآذن تشبه قلم الرصاص وأنا في الطائرة فور وصولي إلى إسطنبول "الاسم الحالي لمدينة القسطنطينية التي تعرفينها".

ماذا كان انطباعكِ عن هذه المدينة الرائعة يا سيدة ماري؟ لقد وصفت أول مرة ترين فيها إسطنبول قبلي بنحو مائتين وتسعة وخمسين عامًا بالآتي:

''... وصلنا في الليلة التالية إلى القسطنطينية، لكنني لا أستطيع أن أخبركم الكثير عنها بعد؛ لأنني انشغلت تمامًا بتلقي الزيارات... قصرنا يقع في منطقة بيرا[1]، وهي ضاحية من ضواحي القسطنطينية تشبه ضاحية ويستمنستر خارج لندن، ويقيم جميع السفراء بالقرب منا.

يطل أحد جوانب منزلنا على المرفأ والمدينة وجناح الحريم في قصر السلطان، وعلى تلال آسيا البعيدة، ولعلها أجمل إطلالة في العالم كله!

ذات مرة قال كاتب فرنسي: '' إن حجم القسطنطينية ضعف حجم باريس...''

بالطبع كان جسر البوسفور الأول من أهمّ الأشياء التي تركت انطباعًا قويًّا في نفسي، ذلك الجسر الذي بدا وحيدًا وقتئذ؛ لأن ''جسري'' جسر الفاتح لم يكن قد بُني بعد؛ يا له من مشهد جليل؛ فبموقعه الحيوي وامتداده يكاد يشبه جسر البوابة الذهبية، أو جسر بروكلين في بلدي!

في وقت لاحق اختبرت بنفسي شعور الفخر الذي شعر به الأتراك نحو هذا الجسر؛ ففي زيارة لاحقة لتركيا نزلت عند أسرة صديقة لي في مدينة سوادي على الجانب الآسيوي من الجسر، وذات يوم أخبرتني الأسرة: أنها قد أعدت مفاجأة لي، حينها لم أكن أفهم اللغة التركية جيدًا؛ لذا لم أعلم ما هي المفاجأة، لكنني كنت مستعدة لها. ركب جميع الأعمام، والعمات، وبعض الأبناء، وأنا، وصديقتي في سيارة قديمة من نوع ''شيفروليه'' وانطلقنا.

(١) بيوغلو حاليًّا (المترجم).

كان يومًا شاتيًا متجمدًا والثلوج تتساقط؛ لهذا سعدت بالدفء المنبعث من تكدس ثمانية أفراد في السيارة.

حينها كانت تركيا تمر بحالة من الفقر والصعوبات الشديدة في شتاء عام ١٩٨٠م، بعد أن فُرضت الأحكام العرفية؛ ومن هنا أدركت أن حرق الوقود الشحيح في رحلة كهذه يدل على أنها رحلة مميزة جدًّا.

فور أن بدأنا الرحلة أخبروني أنهم سيعبرون بي جسر البوسفور، وقالوا: ''نريدك أن تحلقي فوق المضيق كالطائر، وتشاهدي العبارات من أعلى، لتجربي إحساس العبور من قارة إلى أخرى!''

كانوا في غاية الفخر وهم يمنحون ضيفتهم هذه التجربة، وقد خانتني الكلمات حينها، ولا أحد فيهم يعرف علاقتي الشخصية بمضيق البوسفوروالجسور.

وإذا ظننت يا سيدة ماري أنّ الإطلالة من منزلك كانت ''أجمل إطلالة في العالم كله''، فيجدر بك مشاهدة هذه التلال الآسيوية من أعلى الجسر على ارتفاع خمسة ومائة قدم في الهواء؛ فهكذا عبرت أول جسر لي في تركيا في تلك السيارة المليئة بالأتراك المفعمين بالحماس، خطوت خطوة رمزية مهمة لما بقي من حياتي؛ إذ شعرت بإثارة الانتماء لشيء أكبر مني.. شيء يجذبني بخيوط سحرية.

بعد عبوري الجسر لم يعد شيء كسابق عهده مطلقًا؛ فقد بدأت السير من أحد جوانب الجسر بوصفي زائرةً سائحة، ووصلت إلى الجانب الآخر وأنا أكثر من ذلك.

حينما سافرت إلى فرنسا في البداية عدت ذات ليلة في أواخر شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر إلى منزلي سيرًا على الأقدام تحت أضواء الليل،

وفي تلك الليلة الخريفية الباريسية غرس فيّ ضوءُ الغسق المترامي على محطة قطار "مترو رو دو باك" شعورًا لن أنساه ما حييت، فجأة رأيت كل شيء بوضوح، وشعرت أنني أنتمي إلى هذا المكان، ملأني شعور بأنني مقبولة، وأنني أستطيع العثور على مكاني، وأستطيع النمو في هذا المكان، وأنني في هذه الرحلة سأكون وسط رِفاق، وأنني سأتلقى دعوة للمشاركة في الحياة هناك عسى أن أقدِّم لهم شيئًا ذا بال.

شعرت أن المكث هناك والبحث عن سعادتي من حقي، وكما أحببت باريس أحبتني وبادلتني الشعور، وهذا هو نفس الشعور المؤكد الذي ملأني عندما عبرت جسر البوسفور.

تركيا مثلي، تتفقد مسارها مع مرور السنين، وتنمو، وتتسع؛ لقد غدت تركيا بمنزلة جسر لي، أو مكان آمِن فوق المياه الهادئة والمضطربة؛ إنها تذكرني باستمرار أنني أعبر لأذهب إلى مكان ما، وأنني دائمًا بين ضفتين: الضفة التي أنا عليها، والأخرى التي أستطيع الوصول إليها أو بلوغها.

يعلمني عبور الجسور أن أكون مستعدة ومتسلحة بالثقافة لعبور طريقي، سواءٌ هنا أو في وطني، وأن أبحث عن شخصيتي في تواريخ الآخرين المتباينة؛ لقد تركت تركيا بصمتها على حياتي كما تركتُ بصمتي على حياتها، وأنا أواصل السفر وعبور الجسور لأفهم هذا الرابط العاطفي الدائم الذي يربط شاطئي بشاطئها.

حتى يومنا هذا أجد متعة وإثارة في عبور أي جسر، وما أكثر الجسور في تركيا، لا يقتصر الأمر على الجسرين الواقعين خارج "أدرنه" اللذين عبرتهما يا سيدة ماري، أو الجسرين اللذين يعبران مضيق البوسفور، بل ثمة مئات الجسور الأخرى التي بُنيت على مدار آلاف السنين، على يد الرومان أو البيزنطيين أو السلاجقة أو العثمانيين، وهي إنَّما بُنيت لتربط طرق الاتصال والثقافة والتجارة المتفرقة.

وأنا أحرص في رحلاتي أن أعثر على الجسور وأسير فوقها، وحين أعبرها ببطء شديد أشعر أنني أستمد من صخورها القوة، وأفكر في كل الأشخاص المشهورين والمجهولين، البسطاء والمهمين، الذين خطوا نفس خطواتي؛ فالحيوانات والفلاحون والمسافرون والمحاربون والملوك والسلاطين والدراويش كلهم عبروا قبلي هذه الجسور.

من بين الجسور اللافتة التي عبرتها: "الجسر المقوس" في ضواحي مدينة سيواس، حيث تمرح كلاب الكنجال التركية على ضفتيه، وجسر "أك" الذي يقع في وسط مدينة أنقرة النشطة، وهو يعود إلى القرن الثالث عشر، وجسر "خان كيسك كبور" الطويل ذو القناطر الثلاث عشرة، و"جسر مالابادي" الكبير، وجسر "البيزنطيين" الذي يعود إلى القرن السادس ويقع خارج أسوار مدينة ديار بكر ويمكن رؤيته من الفضاء، والجسر المفضل لديّ "الجسر السلجوقي" الصغير الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات، فهذا الجسر يلهمني بجماله وموقعه وبساطته والرسالة التي يحملها؛ فقد تمكن ثلاثة إخوة يتنافسون على العرش السلجوقي أن يضعوا خلافاتهم جانبًا ليبنوا هذه التحفة الفنية الصغيرة التي تربط محور التجارة الجديد من الشمال إلى الجنوب في مملكتهم.

دعونا نحن أيضًا -حكامًا ومواطنين وأممًا- نضع خلافاتنا جانبًا لنبني بعض الجسور، ونعبرها معًا خطوة تلو الأخرى.

صديقتكم

كاثرين برانج

جسر ''هادريان'' الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات عام ١٢٥٠م

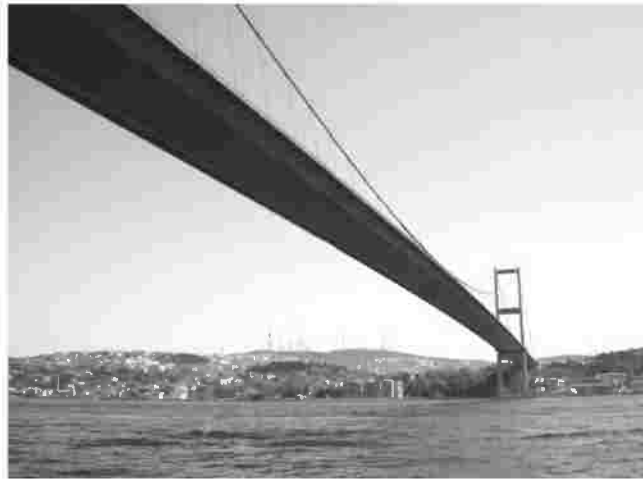

جسر البوسفور، إسطنبول عام ١٩٧٣م